العداء الفارسي للعرب

أساس تشكل الدولة الإيرانية

جمال عبيدي*

■■ يرى المؤرخ والكاتب الإيراني الأرمني يراوند آبراهاميان «أن الإيراني يرى الوصول للثروة من خلال تدمير جاره». هذا النوع من التفكير امتزج بالثقافة الفارسية الحالية، والمستمد من الأوهام التاريخية، فكلنا مازلنا نعاني منه، شعوبا وحكومات، في منطقة الشرق الأوسط، أي العالم العربي، وما نراه حاليا هو نتيجة حتمية لهذه الأوهام.

في هذا السياق كان المؤرخ الإيراني أحمد كسروي (١٨٩٠-١٩٤٥) قد وصف إيران بـ«برميل من القذارة التي عمّت رائحتها العالم أجمع». ما أراد كسروي إيصاله، هو حجم الكراهية الذي يضمره الفارسي تجاه الشعوب الأخرى القاطنة في جواره، خاصة العرب. وكسروي هو من أسس أول حركة سياسية اجتماعية في إيران تحت عنوان «باكديني» -أي الدين الطاهر- في تلك الفترة، وكان هدفها إيجاد هوية إيرانية علمانية جديدة بالمطلق، مبنية على العرق الفارسي والأوهام التاريخية.

إذن، هذه أوهام الفرس التاريخية والثقافية التي أخذت في الكثير من الأحيان طابعا قوميا سياسيا، انعكست أيضا في بعض الأحيان سلبا على الشعوب القاطنة في جغرافية إيران السياسية الحالية، وأخرجتها من محيطها الطبيعي، وغالبا ما تكوّنت انتماءات هذه الشعوب، العرب والبلوش والأتراك والأكراد وغيرهم، خارج المركز الإيراني طهران.

البعد التاريخي والثقافي

لمعرفة الشخصية الفارسية الحالية، لابد من الخوض ولو جزئيا في البعد التاريخي والثقافي والسياسي والاجتماعي لإيران التي باتت عبئا على الإقليم كله. ولفهم حيثيات العقلية الفارسية في التفكير والتخطيط والتنفيذ، لابدّ من توضيح آليات نشوء إيران السياسي، الذي جاء بفعل تدخل خارجي مصلحي سياسي في بداية القرن الماضي.

تؤكّد الدراسات التاريخية أن بلاد الفرس -الهضبة الفارسية الحالية- خضعت لحكم عدّة سلالات ذات طابع وخصوصية سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية مختلفة عن بعضها البعض، وكان لها التأثير في بناء الشخصية الفارسية سلبا وإيجابا.

وتشير هذه الدراسات في مجملها، إلى أن الحقبة القاجارية هي من أهم الحقب في هذه البقعة التي عُرِفت قديما بـ«بلاد فارس» ويطلق عليها اليوم أبناء الشعوب القاطنة فيها «جغرافية إيران السياسية». وعليه، بعد ما اكتشف البريطانيون النفط في شمال الأحواز بين عامي ١٩٠٩-١٩٠٦، تغيّر وجه المنطقة كليا، بالتزامن مع صعود البلاشفة إلى السلطة في روسيا عام ١٩١٧، متطلّعين إلى الوصول للمياه الدافئة في الخليج العربي، استنادا إلى وصية القيصر بطرس الأكبر «توغلوا حتى تبلغوا سواحل الخليج العربي، ومن ثم واصلوا السير نحو الهند». ومن هنا أتت الضرورة البريطانية آنذاك لإيجاد سد منيع يقف أمام دخول الروس للمستعمرات الإنكليزية، والذين تجمعهم مع الفرس القدامى والذين جاؤوا للهضبة الإيرانية الحالية -أي وسط جغرافيا إيران الحالية بالتحديد- من منطقة

القوقاز (قبل ٢٥٠٠ عام)، مشتركات تاريخية وحدودية قد تُسهِّل وصولهم إلى منطقة الخليج العربي.

وكان على بريطانيا العظمى وقادتها آنذاك (بدايات القرن العشرين)، إيجاد دولة تؤمّن لهم مصالحهم في المنطقة، رغم علاقاتهم الجيدة مع المحمرة عاصمة الأحواز، ومع عاصمة البلوش في تلك الفترة، والتي كانت تعرف بـ«بهره» وحاليا بـ«إيرانشهر». حيث قدّم الدبلوماسي والمؤرخ «السير جان ملكم» أول سفير لبريطانيا في زمن حكومة «فتحعلي القاجار»، في كتابه «تاريخ إيران» عام ١٨١٣، نظرية جديدة للمرة الأولى عن إيران القديمة، حول «مركزية العرق الآري»، حتى يبرهن أن «الشعب الفارسي» شعب يختلف عن شعوب الشرق الأوسط، بل أفضلها، وكأنه «شعب الله المختار». فيما سخّر البريطانيون الكثير من الموارد المادية والبشرية لإنشاء السلالة البهلوية، وكلفوا اردشيرجي ريبورتر الزرادشتي الهندي الأصل والعميل السري للمخابرات البريطانية في إيران بتنفيذ هذه المهمة، من خلال إعداد وتأهيل رضا ميربنج الذي أصبح شاه إيران في ما بعد.

ونلحظ هنا، التقاء المطامع الفارسية مع المصلحة البريطانية، وربما اليهودية أيضا، حيث حتّمت الضرورة على هذه الأطراف إيجاد بديل للواقع التاريخي والاجتماعي والثقافي والديني السائد في جغرافية إيران آنذاك. فاحتُلت الأقاليم ذات الطابع التاريخي والقومي والثقافي والديني المختلف كليا عن بلاد فارس، الواحد تلو الآخر، وآخرها احتلال الأحواز وضمها لبلاد فارس، لتكون خاتمة الاحتلالات «الفارسية- البريطانية» في النصف الأول من القرن الماضي.

وللدلالة على هذا الواقع أعتقدُ، ولستُ جازما، ولنترك التدقيق والتفحص للمختصين في علوم التاريخ، بأنه يجب النظر في الأمرين التاليين كمدخل لفهم العلاقة «الفارسية- اليهودية» في تلك الحقبة والأهداف المرجوة منها، لا سيما تأثير مخرجاتها في العقلية الفارسية الحالية والتي باتت مزعجة جدا:

◄ **أولا:** فكرة أرض المعياد -أي موطن اليهود- والتي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث كانت فلسطين الخيار الأمثل لتمرير مخطط هرتزل لإيجاد الدولة اليهودية، التي سوّق لها في المؤتمر الصهيوني العالمي الذي عقد في بازل السويسرية في أغسطس عام ١٨٩٧، وكان من الضروري للصهاينة في تلك الحقبة تسويق بعض أفكارهم التاريخية المزورة، وربطها بتاريخ المنطقة العربية، ليجدوا في الفرس القدامى ضالتهم، وكان لهم موطئ قدم في منطقتنا بدءا من احتلالهم لبابل على يد «قوروش» ملك الأخمينيين الفرس عام ٥٣٨ قبل الميلاد، وانتهاء بالمزاعم التاريخية عن علاقة هذا الأخير باليهود ومساعدتهم في التخلص من «ظلم» البابليين آنذاك.

◄ **ثانيا:** ضرورة تغيير الواقع التاريخي والاجتماعي والديني والسياسي السائد للأقاليم التي ضُمَّت حديثا لجغرافية بلاد فارس، بواسطة احتلال عسكري قام به رضا مير بنج في الربع الأول من القرن الماضي.

«الفرس» اعتمدوا توصيات مشروع العميل السري للمخابرات البريطانية «اردشير ريبورتر»، لتحقيق الانصهار القومي

تغيير التاريخ

نتيجة لهذا الواقع الذي فرضته الظروف السياسية والمصلحية لصالح القومية الفارسية بدايات القرن الماضي، كان من الضروري أن يتم تغيير الواقع التاريخي للأقاليم المحتلة حديثا. وتتمة لإنشاء السلالة البهلوية وبناء الدولة الجديدة، التي من المفترض أن تؤمّن مصالح بريطانيا العظمى، حيث اعتمد الفرس توصيات مشروع العميل السري للمخابرات البريطانية الزرادشتي الهندي اردشير ريبورتر، لتحقيق الانصهار القومي في الجغرافيا والدولة الحديثتين، والذي سُمّي في ذلك الوقت «دولت-ملت» وكان الهدف منه بناء دولة جديدة وثقافة جديدة بالمطلق أساسها العرق الآري (Aryan race).

ومن هنا كان لابد للقادة الفرس في تلك الحقبة إيجاد مبررات تاريخية مادية، يعتمد عليها في كتابة التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي الجديد، ويستند إليها في آن واحد. وعليه يبدو أنه وفي بداية الأمر، كُلّف المستشرق اليهودي والمختص بعلم الآثار إرسنت اميل هرتسفلد، للعمل في ما سُمّي بـ «مجموعة باسارکاد وتخت جمشيد الأثرية»، الواقعة في محافظة شيراز وسط إيران بين الأعوام ١٩٢٣-١٩٢٥، وبقي في طهران حتى عام ١٩٣٤.

إلا أنه رفض أن يساهم في تزوير المعطيات التي توصَّل إليها، فتمّ استبعاده عن المهمة، وأوكلت في ما بعد للمؤرخ والمختص بعلم الآثار اليهودي ديود أستروناخ (١٩٦٤-١٩٦١) ليكمل مهمة التزوير المفترضة.

ودلالة على هذا التزوير الذي اعتُمِد كأساس في بناء الدولة والإنسان الفارسي، الدراسة التاريخية التي قام بها مكتب المرشد علي خامنئي، للبحث في جدلية الشخصية الأسطورية لـ «كوروش الكبير»، والتي تنظر في الحقائق التاريخية من خلال ما يُسمَّى بـ«مجموعة تخت جمشيد وباسارکاد (بازغاد)الأثرية». وجاءت هذه الفكرة للمرشد الإيراني عندما ذهب إلى مدينة همدان الفارسية واطَّلع على حجم الكذب والتزوير الذي اعتُمِد في بداية القرن الماضي، لإظهار ملك الأخمينيين والبطل الذي لا يُقهَر أبدا، أي كوروش الكبير، والذي «فتح» بابل و«حرّر» اليهود من الظلم البابلي، أي «الهولوكوست البابلية».

ويبدو أن هذه الدراسة العلمية المحكمة التي نشرت بتاريخ (١١/٥/٢٠١١) في كبرى الصحف والمراكز البحثية الإيرانية، ومنها وكالة «فارس للأنباء» التابعة للحرس الثوري، وموقع «تابناك» الإخباري التابع لسكرتير مجلس تشخيص مصلحة النظام، تحت عنوان «باسارکاد ساخته يهوديان يا ايرانيان؟ -أي باسارغاد صناعة يهودية أم إيرانية؟» قد توصلت إلى نتائج شكّكت في الكثير من المزاعم التاريخية التي نُسِبت للسلالة الإخمينية من حيث الأساس، وضربت بعرض الحائط كافة الادعاءات التاريخية التي تم تزويرها بمساعدة اليهود في العشرينات من القرن الماضي. ومن الجدير ذكره أيضا أن الفريق الذي كُلّف بإعادة النظر في مجموعة «باسارکاد وتخت جمشيد» تبين له أن معظم الآثار والحفريات، تعود في مجملها للحضارة العيلامية في الألف الثالث قبل الميلاد في إقليم الأحواز العربي، أي قبل نزوح الفرس من جبال القوقاز بالمئات من السنين.

وسنسعى في المادة القادمة إلى تبيان حجم التزوير الذي لجأت إليه السلطات الفارسية المتعاقبة في عملية استكمال بناء الدولة الإيرانية، وترسيخ العداء الفارسي للعرب كآلية تنشئة سياسية للأجيال الجديدة.

*رئيس مركز مستقبل الشرق للدراسات والبحوث- لندن

(العرب)